الفتاوى السعدية

تأليف

العالم المحقق

الشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي

مكتبة المعارف
الرياض

وليكثر من سؤال ربه لييسِّر أموره ، وأن يختار له أحسن الأحوال، وليكن قنوعاً برزق الله ، راضياً بما قسم الله ، لايحزن على مفقود ، ولا يتشوش من مناقضة الأسباب لمراده ، فبذلك يحصل رضا ربه وراحة قلبه . ويبارك له في القليل ، وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

المسألة السابعة

في قوله ﷺ : احرص على ماينفعك واستعن بالله

قوله ﷺ « احرص على ماينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان » (١) ما أجلَّ هذا الحديث وأغزر فوائده ، وأجمعه لخيري الدنيا والآخرة ، فإن مجموع سعادة الدنيا والآخرة في حرص العبد على كل عمل ينفعه في دينه ودنياه مع استعانته بالله ، فمتى حَرَص العبد على الأمور النافعة ، واجتهد فيها ، وسلك أسبابها وطرقها ، واستعان بربه في حصولها وتكميلها ، كان ذلك كماله وعنوان توفيقه ، ومتى فاته واحد من هذه الأمور الثلاثة ، فاته من الخير بحسبها ، فمن لم يكن حريصاً على الامور النافعة ؛ بل كان كسلاناً عن النافع له في أمور دينه ودنياه ، لم يدرك شيئاً ، فالكسل أصل

(١) رواه مسلم في « صحيحه » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الخيبة والفشل ، فالكسلان لايدرك خيراً ، ولا ينال مكرمة ،ولا يحظى بدين ولا دنيا . وإن كان حريصاً ، لكن على غير الأمور النافعة ، إما على أمور ضارة ، أو أمور مفوتة للمنافع والكمال ، كان ثمرة حرصه الخيبة وفوات الخيرات ، وحصول الشرور والمضرات . فكم من حريص على سلوك طرق وأحوال غير نافعة لم يستفد من حرصه إلا التعب والعناء والشقاء ، ثم إذا سلك العبد الطرق النافعة، وحرص عليها واجتهد ، لم تتم إلا بصدق اللجاء والاستعانة بالله على إدراكها وتكميلها ، وأن لايتكل على حوله وقوته ، بل يكون اعتماده التام بقلبه وباطنه على ربه، فبذلك تهون عليه المصاعب ، وتتيسر له الأمور ، وتحصل له الثمرات الطيبة في أمر الدين ، وأمر الدنيا ،لكنه في هذه الأحوال محتاج ، بل مضطر الى معرفة الأمور النافعة التي ينبغي الحرص عليها ، والجد في طلبها .

إذا تقرر ذلك ، فالأمور النافعة في الدين ترجع الى أمرين : علم نافع وعمل صالح ، أما العلم النافع ، فهو العلم المزكيِّ للقلوب والأرواح المثمرة لسعادة الدارين وهو ما جاء به الرسول ﷺ من حديث وتفسير وفقه ، و ما يعين على ذلك من علوم العربية بحسب حالة الوقت والموضع الذي فيه الانسان . وتعيين مايشتغل به من الكتب يختلف باختلاف الأحوال والبلدان ، والحالة التقريبية في نظرنا هذا : أن يجتهد طالب العلم في

حفظ مختصرات الفن الذي يشتغل به ، فإن تعذر أو قصر عليه حفظه لفظاً ، فليكرره كثيراً حتى ترسخ معانيه في قلبه ، ثم تكون باقي كتب الفن كالتوضيح والتفسير لذلك الاصل الذي أدركه وعرفه ، فلو حفظ طالب العلم « العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وثلاثة الأصول ، وكتاب التوحيد للشيخ محمد ، وفي الفقه « مختصر الدليل » و« مختصر المقنع » ، وفي الحديث « بلوغ المرام » ، وفي النحو « الآجرُّوميَّة » ، واجتهد فى فهم هذه المتون ، وراجع عليها ماتيسر من شروحها ، أو كتب فنها فإنها كالشروح لها ، لأن طالب العلم إذا حفظ الاصول ، وصار له ملكة تامة في معرفتها هانت عليه كتب الفن كلها الصغار والكبار ، ومن ضيع الأصول حُرم الوصول. فمن حرص على هذه العلوم النافعة ، واستعان بالله ، أعانه وبارك له في علمه وطريقه الذي سلكه ، ومن سلك في طلبه للعلم غير الطريقة النافعة ، فاتت عليه الأوقات ، ولم يدرك إلا العناء ، كما هو معروف بالمشاهدة والتجربة. أما الأمر الثاني وهو العمل الصالح ؛ فالعمل الصالح هو الذي جمع الإخلاص لله ، والمتابعة للرسول ، وهو التقرب إلى الله بما يحب باعتقاد مايجب لله من صفات الكمال ، وما يستحقه على عباده من العبودية ، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله وتصديقه ، وتصديق رسوله في كل خبر أخبر به ، ثم يسعى في أداء مافرض الله على العباد من

حقوقه وحقوق عباده ، وكمّل ذلك بالنوافل والتطوعات وخصوصاً المؤكدة في أوقاتها ، مستعيناً بالله على فعلها وتكميلها ظاهراً وباطناً ، ثم تقرب الى الله بترك المحرمات وخصوصاً التي تدعو اليها النفوس الأمارة بالسوء ، فيتقرب العبد الى الله بتركها ، كما يتقرب إليه بفعل المأمورات ، فمتى وفق العبد لسلوك هذا الطريق في العمل ، واستعان الله على ذلك ، أفلح وأنجح ، وكان كماله بحسب ماقام به من هـــذه الأمور ، ونقصه بحسب مافاته منها . وأما الأمور النافعة في الدنيا ، فالعبد لابد له من طلب الرزق ، فينبغي أن ينظر أنفع الأسباب الدنيوية اللائقة بحاله فيسلكها ، ويعمل عليها ، وذلك يختلف باختلاف الناس . ويقصد بطلبه وسعيه القيام بواجب نفسه ، وواجب عائلته ، ومن يقوم بمؤونته ، وينوي الكفاف والاستغناء بسببه عن الخلق ، وكذلك ينوي القيام بالعبوديات اللائقة بالمال من زكاة وكفارة ، ونذر ونفقات ، ونحوها من كل مايتوقف على المال ، فمتى كان طلبُ العبد وسعيُه في الدنيا لهذه المقاصد الجليلة ، وسلك أنفع طريق يراه مناسباً لحاله ، وسلِمَ من المعاملات الرديئة ، والغش وتوابعها ، كانت حركاته قربةً يتقرب بها الى الله عز وجل ، ولا يتم ذلك إلا بالتوكل على الله وحده راجياً منه أن ييسره لأيسر الأمور وأنجحها وأقربها تحصيلاً لمراده ، ويسأل الله أن يبارك له في رزقه ، فأول

بركة الرزق أن يكون مؤسساً على التقوى ، والنية الصالحة ، ومن بركة الرزق أن يُوفَّقَ العبدُ لوضعه في مواضعه الواجبة والمستحبة ، ومن بركة الرزق والمعاملة أن لا ينسى العبدُ الفضل ، قال تعالى (ولا تنسوا الفضل بينكم) (البقرة : ٢٣٧) وذلك بالتيسير على المُوسِرين وإنظار المُعْسِرين ، والمحاباة عند البيع والشراء بما تيسر من قليل وكثير ، وإقالة المستقيل ، والسماحة في البيع والشراء . فمن وفق لهذا أدرك خيراً كثيراً . فإن قيل أي المكاسب أولى وأفضل ؟ قيل : قد اختلف العلماء ، فمنهم من فضل الزراعة والحراثة ، لما فيها من قوة التوكل وتعلق الرجاء بالله في إنزال الغيث ، ولما فيها من النفع المتعدي ، ومنهم من فضَّلَ البيع والشراء ، لما فيه من الشرف ، وحسن الاعتبار ، وتوسع المعرفة والبركة ، ومنهم من فضَّلَ الصناعة ، لما فيها من القيام بالمنافع الكلية ، ولكن هذا الحديث هو الفاصل للنزاع في هذه المسألة إذ قال : « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله »[1] والنافع من ذلك معلوم أنه يختلف باختلاف الناس ، فقد يكون بعض المذكورات أفضل في حق شخص ، ويكون الآخر أفضل في حق الآخر ، ولكن السبب الذي يأتيك براحة وطمأنينة ، ويكون فيه معونة على أمور دينك لا ريب أنه أفضل الأسباب على الإطلاق . ثم إنه ﷺ في آخر الحديث حض على الرضى بقضاء الله وقدره بعد بذل الجهد ، واستفراغ

(١) رواه مسلم في « صحيحه » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

الوسع في الحرص على النافع ، فإذا أصاب العبد مايكره ، فلاينسبه إلى ترك بعض الأسباب التي يظن نفعها لو فعلها ، بل يخلد إلى قضاء الله وقدره ، ليزداد إيمانه ويسكن قلبه ، فإن « لو » في هذه الحال تفتح عمل الشيطان ، وهو نقص الإيمان ، وعدم الرضى بقدر الله وقضائه،وتفتح « لو » باب القلق والحزن من تشوش الأسباب،وهذه الحال التي أرشد إليها ﷺ هي الطريق الوحيد لراحة العبد في دنياه، كما أنها خير له في دينه وأخراه ، فإن مدار سعادة الدنيا على راحة القلب وسكونه وقناعته بما قسم الله ، وذلك بما دلّ عليه هذا الحديث من الحرص على كل أمر نافع وسيلة ومقصداً مع الاستعانة بالله وقت حصوله ، والرضى بالله وبقدره بعد حصوله ، والله أعلم .

المسألة الثامنة

في طرق العلم وأقواها

ما هي الطرق التي تدرك بها العلوم وما أقواها وأصحها ؟

الجواب وبالله التوفيق : هذا سؤال عظيم جداً يستدعي الإجابة عن جميع الطرق التي يتوصل بها إلى أنواع العلوم ، وإلى بيان درجاتها ومراتبها في القوة والضعف ، والوضوح وضده . اعلم أن الطرق